

التوكل والطريق الشاك



«في حياة الإنسان أيامٌ صعبة شاقة، فيها الكثير من الأشواق.. أيامٌ يضطهد فيها الإنسان دينه أو عقيدته أو إيمانه.. أيامٌ تكون فيها عقيدة الإنسان على المحك، فيُختبر ويمحَّص، وهذه هي سنة الحياة.. اختبارات فاختبارات فاختبارات..»

وليس أمام الإنسان المبتلى في دينه إلا خياران، أمّا البقاء وتحمل مصاعب العمل، والاكتواء بنار التعذيب والفتنة.. وأمّا الهجرة إلى ديار أخرى، حيث الأمن والطمأنينة، حيث ينطلق الإنسان من جديد ليتحرك على نطاق الدعوة إلى الله سبحانه، والعمل الجاد لتثبيت أسس الدين وعقيدة التوحيد.. وهذا ما اختاره المسلمون الأوائل في هجرتهم إلى الحبشة، وهجرتهم الثانية إلى المدينة.. يقول تعالى: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا طَلَعُوا لِنُذِيرٍ نَذَرَهُمْ [1] فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَدَقُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل/ 41-42). فالتوكل والصبر والهجرة في سبيل الله، أمور على الإنسان أن يضعها في حسابه عند الدخول في دائرة الإيمان والإسلام، لأن عقيدة التوحيد تربّي الإنسان دائماً على المعاناة والشدة، فتصوغه صياغة جديدة، فيها الكثير من صفاء السريرة، ونقاء الضمير..

ويذكر لنا القرآن الكريم أنّ النعمة التي أنعم الله بها علينا، وهي نعمة الإيمان والهداية، تستوجب منا نحن البشر أن نتوكل عليه سبحانه، وأن نصبر على أذى المشركين، في سبيل الدعوة إليه.. يقول تعالى في حديث عن قوم موسى (ع): (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلَا تَتَوَكَّلْ الْإِسْلَامُ مِثْلُكُمْ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُفْلِتَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْيَوْمِ وَمَا أَذَى يَتْمُونُوا وَعَلَى اللَّهِ فَلَا تَتَوَكَّلْ الْإِسْلَامُ مِثْلُكُمْ) (إبراهيم/ 11-12). والمعنى: أنّه إذا كان من الواجب أن نتوكل على الله ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيذائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد ويفعل ما يشاء من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من طاهر الحول والقوة.

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم، حالة المجتمع خلال نزول الرسالة الإسلامية ويجمّلها.. إنّها كانت أمة كافرة بالرّحمن، أمة جاحدة لنعمة الله.. وما على الرسول إلا أن يتوكل على الله ويبلغ

رسالة السماء، فلعلَّ □ هادي تلك الأمّة الكافرة.. يقول تعالى: (كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَذَكَّرَ اللَّهُ الَّذِي لَهُ الْوَحْدَانِيَّةُ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) (الرعد/ 30)، فالتوكلُ على □ سبحانه قرينة لكلِّ المصاعب والمشاق التي يتحملها الرسول في تبليغ رسالته إلى الناس.. فذكر □ والاعتماد عليه سبحانه بلسم يشفي النفوس المتعبة من أذى الناس وجحودهم وجهلهم..

وفي معركة بدر، والموقف الصعب الهائل، حيث الفئة القليلة المؤمنة تجابه الفئة المشركة، القوية العدّة، الكثيرة العدد.. كانت هناك فئة من قريش أسلموا بمكة واحتبسهم أبائهم، واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، فأجابهم القرآن أن التوكل على □ سبحانه، هو الذي يمنح الإنسان المؤمن القوة والعزيمة، وأن قوة المؤمن وثباته، إنّما هو امتداد لإيمانه الراسخ ب□ سبحانه وتوكله عليه.. يقول تعالى في هذا الصدد: (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ غَزِيْرٌ حَكِيمٌ) (الأنفال/ 49).

وهكذا يعلمنا القرآن الكريم أن التوكل على □ سبحانه في وسط الطريق حيث الأشواك والمعاناة والطريق الدامي، هو العنصر الأساسي في استمرار الدعوة لعقيدة التوحيد.. وأن الصلة التي تصل الإنسان ب□ سبحانه لأبد وأن تكون في أوثق ما تكون أيام المحن والشدائد.. وأن المدد الإلهي للإنسان المؤمن هم أعظم عدّة يتسلّح بها الإنسان في مواجهة الشرك والكفر والإلحاد.. (قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنُّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الملك/ 29). ▶

الهامش:

[1]- لنبوئنههم: من بوّأت له مكاناً أي سوّيت وأقررت فيه.

المصدر: كتاب الأخلاق القرآنية